جامعة الأزهر

كلية البنات الإسلامية بأسيوط

المجلة العلمية

أَقْبَاسٌ مِنْ بِلاغَةِ النُّبُوَّةِ
فِي حَدِيثِ «سَيِّدِ الاسْتِغْفَارِ»

إعداد

د/ أحمد محمد محمود سعيد

أستاذ البلاغة والنقد في جامعتي الأزهر وطيبة

(العدد الواحد والعشرون)

(يونيه ١٤٤٥هـ /٢٠٢٤م)

أَقْبَاسٌ مِنْ بِلاغَةِ النُّبُوَّةِ فِي حَدِيثِ "سَيِّدِ الاسْتِغْفَارِ"

أحمد محمد محمود سعيد

قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة طيبة ،المدينة المنورة، وقسم اللغة العربية ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق، جامعة الأزهر،مصر.

البريد الإلكتروني: *ammsaid@taibahu.edu.sa*

الملخص:

تَتَبُّعُ الإشاراتِ البلاغيةِ الكامنةِ في تراكيب «سيد الاستغفار»، مما أهَّلَهُ لِتَسَنُّمِ هذه الرُّتبة بين صيغ الاستغفار الأخرى.

مشكلة البحث: تَكْمُن في خفاء وجْه اختصاص هذه الصيغةَ بوصف «سيد الاستغفار».

أهداف البحث: بيان ما يُمْكِن مِن لطائفه البلاغية- قَدْر الطاقة-؛ للكشف عن وجه تسميته بـ «سيد الاستغفار».

منهج البحث: يَنْتَهِجُ البحثُ المنهجَ التحليليَّ، ويستثمر نظرية النظم، ويُسائل الخصائص في سياقاتها.

نتائج البحث: تجلّى من خلال هذا البحث نتائج بلاغيَّة تخصصيَّة، وأخرى عَقدِيَّة إيمانيَّة

١ - تكاثف عناصر التوكيد التي ترتقي بروح الذاكر بحيث لا يكون بينه وبين الجَنَّة إلا أن يموت، ومنها: أسلوبُ القصر بطرقه المنوَّعة، وكثرةُ الضمائر- خطابا وتَكَلُّما-؛ والتقابل المعنوي الكاشف عن بُعْد ما بين عظمة الخالق ﷻ وعظيم نعمائه على عبده المستغفر، وضعفُ المخلوق وغلبةُ جهله بحقّ الخالق..

٢ – انتقاء الألفاظ المُعبِّرة اللافتة للنظر الواعي مثل: «إله– رب– عبد– خلق– صنع– عهد...».

٣ – اشتمال «سيد الاستغفار» عل أُمَّهات القضايا الإيمانية، ومنها:

*الْإِقْرَارُ لِلَّهِ وَحْدَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَالْعُبُودِيَّةِ، وأَنَّهُ الْخَالِقُ.

*الْإِقْرَارُ بِالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِ، والرَّجَاءُ بِمَا وَعَدَهُ بِهِ.

*الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا جَنَى الْعَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ.

*إِضَافَةُ النَّعْمَاءِ إِلَى مُوجِدِهَا، وَإِضَافَةُ الذَّنْبِ إِلَى نَفْسِهِ؛ رَغْبَتُهُ فِي الْمَغْفِرَةِ.

*الاعْتِرَافُ بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا هُوَ.

٤ – اتفاقُ «سيِّد الاستغفار» مع مطلع الذكر الحكيم «سورة الفاتحة؛ حيث يُوجز كلٌّ منهما قضية الربوبية ويُخلّصها (لله) تعالى، كما يَحسِم قضية الألوهية ويُوجبها (لله) سبحانه، ويرتب عليهما قصر قضية العبودية (الحمد) على الله الواحد الحق؛ ولعل ذلك مما أهَّل «أمَّ الكتاب» لتكرارها بداية كلّ صلاة، كما أهل هذا الذِكْر لوصف «سيد الاستغفار»، ووَعَدَ قائلَه بالجنان..

كلمات مفتاحية: حديث، سيد، الاستغفار، أذكار، الصباح، المساء.

Insights from the Eloquence of Prophethood in the Hadith Known as '*Sayyed Al-Istighfar*'

Ahmad Muhammad Mahmoud Said,

Department of the Arabic Language, College of Arts and Humanities, Taibah University; Department of the Arabic Language, Faculty of Islamic Studies (Male Students), Desouk, Egypt

ammsaid@taibahu.edu.sa

Abstract

The research traces the rhetorical nuances embedded in the phrases of the hadith known as Sayyed Al-Istighfar (Master of Forgiveness), Which Qualify it to attain this status among other forms of asking for Allah's forgiveness. The research problem lies in the obscurity of the specific feature that distinguishes this hadith with the title 'Sayyed Al-Istighfar.' The research aims to elucidate as many of its rhetorical subtleties as possible, within the limits of the researcher's ability, in order to uncover the reason behind its designation as the 'Sayyed Al-Istighfar.' The research adopts an analytical approach, utilizing the theory of composition, and examines the characteristics within their contexts. The study has revealed specialized rhetorical results, as well as theological and faith-based outcomes: 1) The intensification of elements of affirmation that elevate the spirit of the one who remembers Allah; 2) The selection of expressive and attention-grabbing words for the conscious mind, such as Ilah (God), Rabb (Lord), Abd (servant), Khalq (creation); 3) the inclusion of the fundamental issues of faith in Sayyed Al-Istighfar; 4) The alignment of Sayyed Al-Istighfar with the opening of the Holy Quran, "Surat Al-Fatihah." Both summarize the issues of Lordship, divinity, and servitude. This perhaps qualifies "The Mother of the Book" (Al-Fatihah) to be repeated at the beginning of every prayer, just as it qualifies this supplication to be described as Sayyed Al-Istighfar and promised its reciter Paradise.

Key words: *hadith – master - forgiveness – prayers – morning – afternoon*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، دعا عباده إلى استغفاره ووعدهم- سبحانه- منه كريم الغفران، والصلاة والسلام على سيد المستغفرين، سيدنا محمد بن عبد الله، خيرِ مَن استغفر ربَّه العزيزَ الغفار، ودلَّ أمته على أجمعِ صيغ التوبة والاعتذار، وعلَّمهم دعاءً جامعا أسماه «سيِّدَ الاستغفار»، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأبرار، وتبَعِه الأخيار، إلى يوم الدين، واجعلنا اللهُمَّ منهم، ومعهم، وفيهم، ووالدِينا، وذرياتِنا، وأستاذَنا، وأصحاب الحقوق علينا، وأدخلنا اللهُمَّ جميعا برحمتك في عبادك الصالحين..

أما بعد: فإن الحبيب المصطفى ﷺ ما ترك خيرا لنا فيه هُدًى ورحمةٌ- عاجلة أو آجلة- إلا دلَّنا عليه، بروح الأب الحاني إلى كونه النبيَّ المرسل، وكان مما دلنا عليه ذلك الذكرُ الشريف المشفوع بالاستعاذة والاستغفار، ووصفه بـ «سيِّدِ الاستغفار»، ترغيبا لأمته وتحبيبا، ولفتًا إلى ما ينطوي عليه ذلك الذكر الشريف من جوامع المعاني العقيدية والنفسية؛ إذ تحطُّ النفسُ المؤمنة بذلك الاستغفار وتطَّرِح عن كاهلها أعباءَها، وتضع في رحابه أثقالَهَا، وتتطامن إليه، وتستمد به من ربها الثقة، وتستشعر الأمن والأمان، وقلْ في «سيِّد الاستغفار» ما شئتَ من أوصاف الخيرات والبركات التي تَحُلّ بالمسلم، وتَشيع في أرجاء حياته كلها..

وبتكرار العبد المسلم «سيدَ الاستغفار»- صباحا ومساء[1] وفي كل أوقاته- تتجلَّى فيه ومنه للمستغفر المنعم النظر أسرارٌ، وتتبدّى منه له أنوارٌ، يقْبِس منها فتنير جوانب نفسه ودروب حياته؛ مما دعاني إلى قَبْسِ ما لاح لي من أنوار «سيدِ الاستغفار» وإهدائها إلى المسلمين عموما، وإلى طلاب البلاغة العربية خصوصا،

(١) سيد الاستغفار من أذكار الصباح والمساء التي وجهنا إليها الحبيب صلى الله عليه وسلم، ووعد عليه الجنة، يراجع نص الحديث الآتي عقب التمهيد..

فالمسلمون- عموما- في حاجة ماسّة إلى تمثّل تلك اللطائف الروحية الكامنة في «سيد الاستغفار»؛ دعما لإيمانهم، وارتباطا بربهم- سبحانه-، ونشرا للثقة والأمن والأمان في نفوسهم، في زمان تُطِلّ الفتنُ- بل تهجِم- عليهم فيه؛ فتروّعهم وتفزّعهم أشدّ ترويع وأقسى تفزيع..

وطلاب البلاغة العربية- خصوصا- كذلك في حاجة ماسّة إلى التدرُّب على الغَوْصِ على الأسرار البلاغية واللطائف النظمية في حديث النبي ﷺ، إذ إنّ الدراساتِ البلاغيةَ في رحاب الذكر الحكيم كثيرةٌ، بدءًا من مباحثِ إعجاز القرآن الكريم في كتب الأولين، ومرورا بالتفاسير المطوَّلة والمتنوِّعة عبر عصور الإسلام المتتالية، ووصولا إلى الرسائل العلمية الأكاديمية المتخصصة في الجامعات الإسلامية أخيرا، والشعر كذلك حظي بقدر وافر من الدراسات البلاغية والنقدية قديما وحديثا، أما السُّنَّة الشريفة فلم تنلْ بعدُ حقَّها- فيما أعلم- من تلك الدراسات، وقد كانت أطروحتي للعالمية- الدكتوراه- بحمد الله ﷻ وحسن توفيقه في بلاغة النبوَّة، وللآن ليس بين يديْ طلاب البلاغة العربية ما يكفي من بحوثٍ متخصِّصَة دقيقة للتمرُّس والتمرُّن على فقْه بلاغة النبوة فيما أرى..

وقد توفَّر هذا البحثُ على إنعام النظر في بلاغة «سيدِ الاستغفار»، يلتقط من يانع ثماره المعنوية، ويقبِس من باهج أنواره العقدية؛ لما له- وما ينبغي أن يكون له- في نفس كل مسلم من تقدير له وتحبُّب إليه؛ إذ إن تكرَاره بفَهْم ويقين أحدُ ضمانات الظَفَر بالجنة فيما أخبر الحبيب ﷺ كما سيأتي في نصّ الحديث، وهذا وذاك من أهم ما دفعني- كذلك- إلى دراسة البلاغة النبوية في حديث «سيدِ الاستغفار»..

هذا، والبحوث التي عنيت بالأذكار والأدعية النبوية الشريفة كثيرة، لكن القليل منها ما عني بها من الوجهة البلاغية، من ذلك:

١ . «بلاغة الدعاء في الحديث النبوي» رسالة دكتوراة للباحث سلامة جمعة داود كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ١٩٩٨م.

٢ . «الدعاء في الحديث النبوي الشريف- أساليبه ودلالته» رسالة ماجستير للباحثة صباح أحمد صالح الشريف، كلية الآداب والعلوم جامعة الشرق الأوسط٢٠١٢م، وهي رسالة هجين من المباحث البلاغية والنحوية، عرضت الباحثة لمعنى الدعاء وفضله، والتحليل النحوي لبعض أحاديث الدعاء، ثم التحليل البلاغي..

ولم أقف على دراسة مستقلة ووافية بحق بلاغة هذا الحديث الشريف «سيد الاستغفار» وإن كان قد عرض نفرٌ من أهل العلم في بحوث بلاغية وغير بلاغية لشيء من بلاغة تراكيبه من ذلك:

١ . «نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار» تأليف الشيخ العلامة أبي العون محمد بن أحمد السفاريني ١١١٤- ١١٨٨هـ.

والكتاب في واد آخر غير وادينا، فقد استفرغ المؤلف رحمه الله تعالى جهده في تراجم رواة الحديث، وذكر الاستغفار وفضيلته والحث عليه، ثم ذكر حديث الدواوين وبيان معانيه، ثم ذكر سبب تسمية «سيد الاستغفار» بهذا الاسم، وأنه قد فاق سائر صيغ الاستغفار في الفضيلة وارتفع عليها، وأنه لما كان جامعا لمعاني التوبة استعير له السيد١، ثم ذكر المؤلف آداب الداعي، وأنواع التوحيد، ودرجة العبودية وشرفها، وأقوال أرباب الصوفية في الشهادة..

٢ . «شرح حديث سيد الاستغفار» لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر طبعة دار الفضيلة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م يقع في خمس وثلاثين صفحة من القطع الصغير، وهو أيضا في موضوع الثقافة والعقيدة الإسلامية لا البلاغة..

٣ . «قضايا العقيدة في حديث سيد الاستغفار» رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية بغزة ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م للباحثة أسماء حماد عودة عرضت فيها لدلالة سيد الاستغفار

---

(١) يراجع ص: ١٦٩ طبعة دار الصميعي ١٤١٦هـ/١٩٩٦م أشرف على طباعته عبد العزيز بن سليمان الهندان، وعبد العزيز بن إبراهيم الدخيل.

على مسائل الإيمان الواردة فيه، والعبادة والوعد والعهد بين العبد وربه، ومشاهدة النعمة وعلاقتها بالاستغفار، وأثر مسائل العقيدة في ضوء حديث سيد الاستغفار على الفرد والمجتمع..

وواضح من مباحث الرسالة المذكورة عنايتها بالعقيدة والثقافة الإسلامية، وبعدها عن مجال البلاغة..

أما المنهج المُتَّبَع في هذا البحث فهو المنهج الفنيّ التحليليّ، المتمثّل في تفعيل نظريّة «النَّظْم» التي رأى فيها الإمامُ عبد القاهر المفتاحَ الأنسب لفكِّ أسرار النصوص العربية الأصيلة، ذلك المنهج الذي يقف إزاءَ الخصيصة البلاغية يُسائلها عما تنطوي عليه من أسرار، وما تنشُره من أنوار..

وأما خطة الدراسة فقد جاءت تحت مباحثَ أربعةٍ، تسبقهما مقدمةٌ، وتمهيدٌ، وتلحَقها خاتِمةٌ، وفهارسُ، على الوجه التالي:

المقدمـــــــة: وفيها نُبْذة عن أهمية الموضوع، ومنهج البحث، وخطة الدراسة.

التمهيـــــــد: وينهض ببيان مُوجز لدلالة «سيد»، ومفهوم «الاستغفار».

المبحث الأول: أقباسٌ من بلاغة النبوة في «مفتاح النصّ»: «اللهُمَّ أنت ربي» .

المبحث الثاني: أقباسٌ من بلاغة النبوة في مخاطبة العبد ربَّه ﷻ بما هو سبحانه وتعالى أهلُه من توحيدِ الربوبية، وتوحيدِ الألوهية.

المبحث الثالث: أقباسٌ من بلاغة النبوة في الإذعان بين يديه ﷻ بما الذاكرُ أهلُه من الإقرار لله ﷻ بالنِّعمة والإقرار من العبد بالذنب.

المبحث الرابع: أقباسٌ من بلاغة النبوة- فيما يتفرَّع على مخاطبةِ العبد ربَّه ﷻ بالمعنيين السابقين- من الضراعةِ بطلب المغفرة من الله تعالى..

الخاتمـــــــة: وفيها إجمالٌ للخيوط المعنوية الدقيقة الرابطة بين تلك المحاور في حديث «سيد الاستغفار»، وتلخيصٌ لأسباب استحقاقه ذلك الوصف..

فهـــــــارس: المصادر والمراجع، والموضوعات..

هذا، والله- تعالى- أسأل حُسْن القبول، وحسن الثواب لكاتبه وقارئه

وكتبه الفقير إلى عفو ربه الكريم / أحمد محمد محمود سعيد

أستاذ البلاغة والنقد في جامعتي الأزهر الشريف، وطيبة الطيبة

تمهيد

عرضٌ موجز لدلالة «سيد»، ومفهوم «الاستغفار»

يَعرِض هذا التمهيد لمفهوم كلمتي «سيِّد- استغفار»، لنرى من خلال معانيهما اللغوية بعض مقصود النبي ﷺ من وصفه ذلك الذكرَ الشريفَ المعروف بـ «سيد الاستغفار»..

أولا: دلالات كلمة «سيد»: تدور معاني السيادة في اللغة العربية حول معاني «الشرف، والرئاسة، والملك، العظمة، والكرامة، والعزة، والسخاء، والعطاء» وما إليها..

جاء في لسان العرب لابن منظور: «السُّودَدُ: الشَّرَفُ. مَعْرُوفٌ، وَقَدْ يُهْمَز وتُضم الدَّالُ... السُّؤْدُدُ. وَقَدْ سَادَهُمْ سُوداً وسُودُداً وسِيادةً وسَيْدُودةً، وَاسْتَادَهُمْ كَ: سَادَهُمْ وسوَّدهم هُوَ. والمسُودُ: الَّذِي سَادَهُ غَيْرُهُ. والمُسَوَّدُ: السَّيّدُ. وَفِي حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ: اتقوا الله وسَوِّدوا أَكبَرَكم.

والسَّيِّدُ يُطْلَقُ عَلَى: الرَّبِّ، وَالْمَالِكِ، وَالشَّرِيفِ، وَالْفَاضِلِ، وَالْكَرِيمِ، وَالْحَلِيمِ، ومُحْتَمِل أَذى قَوْمِهِ، وَالزَّوْجِ، وَالرَّئِيسِ، والمقدَّم. وأَصله مِنْ سادَ يَسُودُ فَهُوَ سَيْود، فَقُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً لأَجل الياءِ السَّاكِنَةِ قَبْلَهَا ثُمَّ أُدغمت... والسَّيِّدُ: الرَّئِيسُ... ابْنُ شُمَيْلٍ: السَّيِّدُ الذي فاق غيره بالْعَقْلِ وَالْمَالِ وَالدَّفْعِ وَالنَّفْعِ، المعطي مَالَهُ فِي حُقُوقِهِ الْمُعِينُ بِنَفْسِهِ، فَذَلِكَ السَّيِّدُ... وَقِيلَ: السَّيِّدُ: الْكَرِيمُ.

وَفِي حَدِيثٍ: قَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: انْظُرُوا إِلى سَيِّدِنَا هَذَا مَا يَقُولُ؟... وَفِي رِوَايَةٍ: انْظُرُوا إِلى سَيِّدِكُمْ أَي مُقَدَّمِكُم. وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى يَحْيَى سَيِّدًا وَحَصُورًا؛ أَراد أَنه فَاقَ غَيْرَهُ عِفَّة وَنَزَاهَةً عَنِ الذُّنُوبِ. الْفَرَّاءُ: السَّيِّدُ: الْمَلِكُ، وَالسَّيِّدُ: الرَّئِيسُ، وَالسَّيِّدُ: السخيُّ وَسَيِّدُ الْعَبْدِ: مَوْلَاهُ، والأُنثى مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِالْهَاءِ.

وَسَيِّدُ المرأَة: زَوْجُهَا. وَفِي التَّنْزِيلِ: وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ... يُقَالُ: هُوَ سَيِّدُهَا وَبَعْلُهَا أَي زَوْجُهَا... وسيِّد كلِّ شَيْءٍ: أَشرفُه، وأَرفَعُه؛ وَاسْتَعْمَلَ أَبو إِسحق الزَّجَّاجُ ذَلِكَ

فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: لأَنه سَيِّدُ الْكَلَامِ نَتْلُوهُ، وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ- عَزَّ وَجَلَّ: وَسَيِّداً وَحَصُوراً، السَّيِّدُ: الَّذِي يَفُوقُ فِي الْخَيْرِ.

ثانيا: مفهوم الاستغفار: تدور مادة «غفر» في أصل اللغة العربية حول معنيَيْ «التَّغْطِيَةِ وَالسَّتْرِ»، جاء في لسان العرب لابن منظور:

«الغَفُورُ الغَفّارُ: جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَهُمَا مِنْ أَبنية الْمُبَالَغَةِ، وَمَعْنَاهُمَا السَّاتِرُ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ، الْمُتَجَاوِزُ عَنْ خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبِهِمْ. يُقَالُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لَنَا مَغْفِرة وغَفْراً وغُفْراناً، وَإِنَّكَ أَنت الغَفُور الغَفّار يَا أَهل المَغْفِرة. وأَصل الغَفْرِ التَّغْطِيَةُ وَالسَّتْرُ. غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ أَي سَتَرَهَا؛ والغَفْر: الغُفْرانُ،... وَقَدْ غَفَرَه يَغْفِرُه غَفراً: سَتَرَهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ سَتَرْتَهُ، فَقَدْ غَفَرْتَه؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِلَّذِي يَكُونُ تَحْتَ بَيْضَةِ الْحَدِيدِ عَلَى الرأْس: مِغْفَرٌ...، وَمِنْهُ: غَفَرْتُ الْمَتَاعَ: جَعَلْتُهُ فِي الْوِعَاءِ... وَكَذَلِكَ غَفَرَ الشيبَ بالخِضاب وأَغْفَرَه...

وكلُّ ثَوْبٍ يغطَّى بِهِ شَيْءٌ فَهُوَ غِفارة؛... وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ لمَّا حَصَّبَ المسجدَ قَالَ: هُوَ أَغْفَرُ للنُّخامة أَي: أَسْتَرُ لَهَا. والغَفْرُ والمَغْفِرةُ: التَّغْطِيَةُ عَلَى الذُّنُوبِ والعفوُ عَنْهَا، وَقَدْ غَفَرَ ذَنْبَهُ يَغْفِرُه غَفْراً وغِفْرةً حَسَنة...، وغُفْراناً ومَغْفِرة وغُفوراً؛ ... وغَفيراً وغَفيرةً... واسْتَغْفَرَ اللَّهَ مِنْ ذَنْبِهِ وَلِذَنْبِهِ بِمَعْنًى، فَغَفَرَ لَهُ ذَنْبَهُ مَغْفِرةً وغَفْراً وغُفْراناً. وَفِي الْحَدِيثِ: غِفارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا؛ قَالَ ابْنُ الأَثير: يُحْتَمَلُ أَن يَكُونَ دُعَاءً لَهَا بالمَغْفِرة أَو إِخباراً أَن اللَّه تَعَالَى قَدْ غَفَرَ لَهَا... وتَغافَرَا: دَعا كلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ بالمَغْفِرة... والغُفْرةُ: مَا يغطَّى بِهِ الشَّيْءُ»[1].

وبعد: فقد أطلْتُ النقْل عن لسان العرب لمعاني كلمة «سيّد» لِمَا لتلك المعاني من وجوهِ إبانةٍ وكشفٍ لوصف تلك الصيغة الموصوفة بـ «سيد الاستغفار»، وبإنعام النظر في تلك المعاني يتضح أن أغلب تلك المعاني في «سيد الاستغفار» مجازيةٌ، وأن بعضها يمكن أن يكون حقيقةً فيه..

---

(١) لسان العرب: غفر.

قال صاحب عمدة القاري: «وَلما كَانَ هَذَا الدُّعَاء جَامعا لمعاني التَّوْبَة كلهَا استعير لَهُ هَذَا الاسم- سيد الاستغفار-، وَلَا شكّ أَن سيّدَ الْقَوْم أفضلُهم، وَهَذَا الدُّعَاء أَيْضا سيّدُ الْأَدْعِيَة وَهُوَ الاسْتِغْفَار... قيل: مَا الْحِكْمَة فِي كَونه سيّدَ الاسْتِغْفَار؟ وَأجِيب: بِأَنَّهُ وَأَمْثَاله من التعبُّدِيّات، وَالله تَعَالَى أعلم بذلك، لَكِنْ لَا شكّ أَن فِيهِ ذكرَ الله تَعَالَى بأكمل الْأَوْصَاف، وَذكر نَفسه بأنقص الْحَالَات، وَهُوَ أقْصَى غَايَة التضرُّع وَنِهَايَة الاستكانة لمن لَا يَسْتَحِقهَا إلاَّ هُوَ»[1]، وقال المناوي «أي: أفضل أنواع الأذكار التي تُطْلَب بها المغفرةُ هذا الذكر الجامع لمعاني التوبة كلها»[2].

وتأمل معاني: «الشرف، والرئاسة، والملك، العظمة، والكرامة، والعزة، والسخاء، والعطاء، والفَوْق» تجدها حقائق في البشر الموصوفين بها، وأنهم متفوقون فيها على غيرهم، وإطلاقها على صيغة «سيد الاستغفار» يكشف- كذلك- التفوُّق في معانيها التي اشتملت عليها تلك الصيغة- من معانٍ عقِيديّة ونفسيّة- تتفوق على غيرها من صيغ الاستغفار عموما، سواء ما تُوُورِث منها وما تجود به وتتفتق عنه قرائح المستغفرين إلى يوم الدين..

ومع ذلك قد يقال: إن معاني «الشرف والعظمة والفَوْق» تبلغ أن تكون حقائق في «سيّد الاستغفار» لا مجازا؛ ذلك لأن «سيّد الاستغفار» أشرفُ استغفارٍ حقيقةً، وأعظم استغفار حقيقة، وعطاؤه النفسيُّ في العبد المتفقّه الموقن وفي تربية عقيدته وأمان نفسه وراحة باله يفوق عطاء ما سواه من صيغ الاستغفار كلها..

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢٧٨/٢٢ لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفى بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ)، ط. دار إحياء التراث العربي- بيروت، د. ت.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١١٩/٤ لزين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)، ط. المكتبة التجارية الكبرى- مصر، د. ت.

نَصُّ حديث «سيد الاستغفار»

روى الإمام البخاريُّ عن شَدَّادِ بْن أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»(١).

ورواه الإمام البخاري من طريق آخر كذلك عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، إلا أنه أخَّر جملة: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ» إلى آخر الذكر الشريف، وجاء فيه تحديد وقته كالتالي: «إِذَا قَالَ حِينَ يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الجَنَّةَ- أَوْ: كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ- وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ»(٢).

ورواه كذلك عددٌ غيرُ قليل(٣) من أصحاب كتب السنة الشريفة، ونصُّه واحدٌ كما جاء عند البخاري آنفا، لذا اكتفيت بروايتي البخاري، رحم الله الجميع..

وهذا الاستغفار- كما سبق التنويه- معدود في أذكار الصباح والمساء، التي حثَّ الحبيب ﷺ المسلمين على تكرارها؛ لما له من أثر بالغ في توجيه حياتهم، وتربية عقائدهم، وإحاطتهم بأسباب السلامة من الآفات النفسية الباطنية والحسية والخارجية المحيطة، وسواء ما كان في الدنيا أو ما يكون في الآخرة..

ثم إن هذا الذكر الشريف- وإن كان قد بدأ بالثناء على الله ﷻ والاعتراف له والإقرار له ﷻ فإنه سُمِّيَ «سيد الاستغفار» كما أخبر عنه ووصفه النبي ﷺ.

---

(١) صحيح البخاري ٦٧/٨ بَابُ أَفْضَلِ الِاسْتِغْفَارِ برقم ٦٣٠٦.

(٢) السابق ٧١/٨ بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ برقم ٦٣٢٣.

(٣) والرجوع إليه في مظانه يسير؛ لذلك لم أثقل الهوامش بذكرها.

وبالنظر في «سيد الاستغفار» يتبين أن أغلب عباراته وتراكيبه «ذكرٌ وثناء» على الله ﷻ، وأن أقلّ عباراته – في أواخره– «استغفارٌ» للذنوب– غير أنه ﷺ ركَّز الوصف على جملة الاستغفار الأخيرة دون الذكر الأغلب في أولِّه فقال: «سيد الاستغفار أن تقول...».

ولعلّ سببَ تغليبِ وصف «الاستغفار» على ذلك الذكر كلِّه– بشقيه: الذكر والاستغفار– معالجةُ انشغالِ العبد الذاكر وتعلّقُه بقوَّةٍ واهتمامُه– غالبا– بأسباب الرزق الدنيويِّ العاجلِ– من أسباب حسيَّة ومعنويَّة– وبأسباب الرزق الأخرويِّ الآجل– من مَحْوِ خطاياه، واطِّراحِ آثامه، وتطهير صحائفه من اسوِداد الذنوب..

والاستغفارُ– بل «سيِّدُ الاستغفار»– هو الجدير بتحقيق تلك الأمنيات الغاليات إجمالا، كما وعد القرآن الكريم المستغفرين بقَطْفِهم أربعِ ثمرات باستغفارهم ربَّهم ﷻ:

الثمرة الأولى: فَتْح الله تعالى علي المستغفرين البركات الحسية والمعنوية، وذلك فيما حكاه عن نوح– عليه السلام– وأقره الذكر الحكيم: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

الثمرة الثانية: نجاة المستغفرين من العذاب في الدنيا، وعيشهم في أمان تام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

الثمرة الثالثة: ضمان المستغفرين سعادة الحياة ومتعتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٤].

الثمرة الرابعة: ضمان المستغفرين القوة المادية والمعنوية، الفردية والمجتمعية، وذلك في قول هود عليه السلام فيما حكاه القرآن الكريم عنه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

أقول: لعل تكاثف تلك الثمرات للمستغفرين وتعلقهم بها هو ما رجَّح إطلاقَ رسول الله ﷺ وصف «الاستغفار» على هذا الذكر كله، إضافة إلى أن طلب المغفرة في آخر الحديث هو ما تفرَّع على الذكر والثناء قبلَه وبُنِي عليه، فهو الثمرة المرجوة، والخاتَم المُتطامَن إليه..

وقد علَّل ابنُ بطال لإطلاق اسم «سيد الاستغفار»: «إن قيل: أين لفظ الاستغفار في هذا الدعاء، وقد سماه النبي ﷺ سيد الاستغفار؟ قيل: الاستغفار في لسان العرب هو طلب المغفرة من الله تعالى وسؤاله غفران الذنوب السالفة والاعتراف بها، وكل دعاء كان في هذا المعنى فهو استغفار، مع أن في الحديث لفظ الاستغفار وهو قوله: (فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)»١.

وبعد، فإليك لمْحات إجمالية تمهّد للنظر في لطائفِ «سيد الاستغفار»، وتوطئ للنصِّ عليها واحدةً واحدةً بحسْب ما يفتح الله ﷻ لنا منها، ومن لطائف كلٍّ مِحْوَر مِن محاوره الأربعة:

- لعلك تلحَظ- مقدَّما- أن الذكر الشريف يبدأ كسوة معانيه، وترجمتَها وإقرارَها بطريق القصر مِهْيَعا لاختصاص الله ﷻ بتوحيد الربوبية، وكذلك توحيد الألوهية، وكذلك يختتم الذكرُ معانيَه بطريق القصر مهيعا لاختصاص الله ﷻ بغفران الذنوب..
- يأتي بينهما جملةٌ من الاعترافات والرجاءات، والرجاءات حينما تبنى على الاعترافات تكون أدعى للقبول وتحقيق تلك الرجاءات، كما جاء في البخاري- رضى الله ﷻ عنه وأرضاه- في قصة الإفك، إذ قال النبي لعائشة: «يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٧٦/١٠. لابن بطال- أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت ٤٤٩هـ)، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، ط. ٢ مكتبة الرشد - السعودية، الرياض ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»[1]، فالاعتراف يمهّد لكمال الانكسار، وكمالُ الانكسار يدل على ضعف العبد إزاء كمال قوة العزيز الجبار، وذلك خضوع وتذلّل أدعى للقبول والإجابة، ولذلك نعى القرآن الكريم كثيرا على من يؤفكون ويكذبون ويكابرون ولا يعترفون..

-لذلك جاء الرجاء «فَاغْفِرْ لِي» محاطًا من جانبيه بالإقرار والاعتراف، الإقرار والاعتراف أولا بالنعمة من قِبَل الله ﷻ وبالذنب من قِبَل العبد: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي»، ثم الاقرار والاعتراف ثانيا بنفي القدرة على مَحْوِ الذنوب وآثار المعاصي عن كل ما سوى الله ﷻ «إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»، ويتوسط هذا الذكرَ- كما سبق- جملةٌ من الإقرارات: «خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ»..

-تلك الجملة تدور كلُّها في فَلَكِ التسليم بالعبودية المطلقة لله- تعالى-، وكذلك التسليم بالعجز والإقرار بالضعف والفاقة والحاجة إليه- عزّ وعلا-، لذلك كان هذا الذكر بما شُحِنَ به من الاعترافات والاقرارات المتعددة الجوانب «سيدَ الاستغفار»، الذي به ومعه تُرْجَى مغفرةُ الذنوب، والتطهُّر من أرجاس الخطايا، والتبرِّي مِن الشرك كله..

-لذلك- أيضا- كان مَنْ يموت مِن يومٍ قالَهُ فيه في عدادِ الآمنين الناجين من العذاب، الضامنين جنّة الرحمن، اللهُمَّ ارزقناها يا رب العالمين..

وبعد: فـ «سيد الاستغفار» يقوم على أربعة محاور رئيسة مبنية الثلاثة الأخيرة منها على:

---

(١) صحيح البخاري ١٧٣/٣ بَابُ تَعْدِيلِ النِّسَاءِ بَعْضِهِنَّ بَعْضًا برقم ٢٦٦١، لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي، ت. محمد زهير بن ناصر الناصر، ط.١ دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ١٤٢٢هـ.

المحور الأول: الذي يمكن تسميته أو وصفه بـ «مفتاح النصّ»، ومفتاحُ النصّ كلِّه هنا هو تلك الجملة البادئة بالمنادَى ﷺ: «اللهُمَّ أنت ربي»، ثم تتوالى المحاور الثلاثة لهذا الاستغفار «السيِّد» وهي:

المحور الثاني: مخاطبة العبد ربَّه ﷻ بما هو أهله- من توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية،... إلخ.

المحور الثالث: الإذعان بين يديه ﷻ بما الذاكرُ أهلُه- من الاعتراف بالذنب من العبد، والاعتراف بالنعمة من الرب ﷻ...إلخ.

المحور الرابع: ما يتفرع على ذلك من طلب المغفرة من واهبها الفرد الأحد الصمد ﷻ..

وكل مبحث من تلك المباحث يجدُّ في قَبْس ما يُتاح للباحث من أنوار بلاغته، وأسرار تراكيبه، فإلى:

المبحث الأول

أقباس من بلاغة النبوة في مفتاح نصّ سيد الاستغفار "اللهُمَّ أنت ربي"

توطئة: مما التفت إليه بعض العلماء في الحديث النبوي الشريف عموما ما أسموه «الكلمة المفتاح في الحديث» ويعنون أن كل حديث نبوي شريف فيه كلمة أو جملة هي مفتاحه أو ما يمكن تسميتها- تجاوزا- الشيفرة اللغوية المميزة لهذا الحديث أو ذاك..

والجملة المفتاح أو الكلمة المفتاح هي الأشد رنينا، والأقوى تأثيرا في سياقها، أو التي تشكل مدخلا قويا لفهم النص، وتفتح آفاقا أرحب لمعانيه؛ كي تحلق تلك المعاني من خلال ذلك المفتاح في نفس المتلقي..

و«الكلمة المفتاح» في الحديث الشريف... كلمة واحدة على الأقل أو عبارة موجزة، لا نجدها [غالبا] إلا في حديث واحد دون سواه، وبهذه الكلمة أو العبارة الفريدة يصبح كل حديث منفرداً في لفظه ومعناه، متميزاً بوزنه وموسيقاه، ومحبباً إلى الناس بمغزاه، كما يسهل عند أهل الدراية الاستناد إليه وتذكُّره عند الحاجة إليه. وعلى سبيل المثال نذكر بعض ما نصّبوا إليه:

فلئن قلت: «من يرد الله به خيرا» لأجابك السامعون بتتمة الحديث: «يفقهه في الدين»، ولن تجد في أي حديث آخر مثل تلك العبارة حرفياً، ولو قلت: «بُنِيَ الإسلام» لأتم من حولك: «على خمس...» وذكروا أركان الإسلام»[1].

وبإنعام النظر في حديث «سيد الاستغفار» يتجلى لنا اشتماله على أكثر من كلمة وأكثر من جملة تصلح له مفتاحا، ففي أول الحديث تلقانا جملة «اللهُمَّ أنت ربي»،

---

(١) الكلمة «المفتاح» في الحديث الشريف من الإعجاز البياني والروحي في الحديث الشريف للعميد الركن المتقاعد الدكتور محمد فرشوخ. يراجع «منتدى الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في لبنان» على الإنترنت.

وفي أثنائه تلقانا «أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي»، وغيرهما مما يكاد هذا الذكر الشريف ينفرد بها من بين أحاديث النبي ﷺ كلها..

«مفتتام النص» هنا- وهو ما بُنِيَتْ عليه تراكيبُ هذا الذكر المبارك- جملة نداء الله ﷻ «اللهُمَّ أنت ربي».. تلك الجملة النادرة في حديث سيد الخلق ﷺ، والتي تميّزه ذلك الحديث «السيد»، وتمنحه التفرد على نحو يليق بهذا الوصف الكبير «سيد الاستغفار»..

وقد ارتأيت أن أرجئ ذكر الأقباس في جملة توحيد الربوبية «أنت ربي» لضمِّها إلى لِفْقِها من جملة توحيد الألوهية «لا إله إلا أنت» في المبحث التالي إن شاء الله تعالى، وأن نقف هذا المبحث لقبْس أنوارٍ من صيغة النداء «اللهُمَّ»..

وبإجالة النظر في بلاغة النداء بصيغة «اللهُمَّ» يتبين أن تلك التركيبة اللغوية مفعمة بالدلالات البارعة في الكشف عن مكنون نفس الذاكر، إلى ما تنشره من أجواء التهيئة للذكر والدعاء والرجاء التالي لها حيثما وردت، ويمكننا أن نقبس من بلاغتها ما يلي:

القَبَس الأول: التصرُّف التركيبي الفريد في صيغة «اللهُمَّ» يلائم عظمةَ المنادَى الخالق الرازق ﷻ، كما يلائم قوّة رغبة المنادِي الذليل المنكسر المؤمّل في رحمة ربه ﷻ، إذ إن أصلها: «يا أللهُ»، حُذِفَ حرف النداء «يا» وعُوِّضَ عنه في آخر لفظ الجلالة الميمُ للتعظيم والتفخيم..

القبسُ الثاني: تعبِّر تلك الصيغة عن امتلاء النفس وعمرانها يقينا وثقة من العبد الضارع بها بقطف ثمرات ذلك الرجاء، قال ابن عابدين «قال السلف: اللهُمَّ مَجْمَعُ الدعاء. وقال بعضهم: الميم في قول «اللهُمَّ» فيه تسعة وتسعون اسماً من أسماءِ الله ﷻ.. وأوضحه بعضهم بأنّ الميم تكون علامة للجمع، لأنّك تقول: «عليه» للواحد، و «عليهم» للجمع، فصارت الميم في هذا الموضع بمنزلة الواو الدالة على الجمع في قولك: «ضربوا» و«قاموا»، فلمّا كانت كذلك زِيدت في آخر اسم الله ﷻ لتشعر وتؤذن

بأنّ هذا الاسم قد جُمعت فيه أسماء الله ﷻ كلّها. فإذا قالَ الداعي: اللهُمَّ، فكأنّه قال: يا أللهُ الذي له الأسماءُ الحُسنى. قال: ولاستغراقه أيضاً لجميع أسماء الله ﷻ الحسنى وصفاته لا يجوز أنْ يوصف؛ لأنها قد اجتمعت فيه، وهو حجّةٌ لما قالَ سيبويه في منعِهِ وَصْفَهُ[1].

القبس الثالث: التشديدُ الوثيق عبر الميم المضعّفة في آخره؛ يعكس قوّةَ تشبُّثِ العبد في النجاة من المخاطر بأسباب ربه ﷻ.. قال شارح سنن النسائي- وهو أشبه بكلام ابن عابدين آنفا، غير أنه جعل العلةَ تشديدَ الميم لا مطلقَ لحُوقها بلفظ الجلالة-: «شُدِّدَت الميم، لتكون عِوضًا عن علامتيْ الجمع، وهي الواو والنون في «مسلمون» ونحوه، وقد جاء عن الحسن البصريّ: اللهُمَّ مَجْمَعُ الدعاء، وعن النضر بن شُمَيل: من قال: اللهُمَّ، فقد سأل الله بجميع أسمائه»[2].

لذلك تجد تلك الصيغة تملأ مقامات الدعاء، وتفي بامتلاء النفس الوجِلة في مقامات العروج الروحيّ وتأمُّلها وتطلُّعِها إلى الرفيق الأعلى، ولذلك كان الدعاء بها كثيرا في السنة الشريفة- والله أعلم..

---

(١) ينظر: الفوائد العجيبة في إعراب الكلمات الغريبة ٢٩/١ لابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (ت: ١٢٥٢هـ)، ت. د. حاتم صالح الضامن، ط.١ دار الرائد العرب- بيروت ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٢) شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى» ١٩٩/١٥ لحمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي الوَلَّوِي، ط.١ دار المعراج الدولية للنشر [جـ١-٥]- ودار آل بروم للنشر والتوزيع [جـ ٦-٤٠] ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م. وينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٥٥/١١ لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ط. دار المعرفة- بيروت، ١٣٧٩هـ.

القبَس الرابع: وقوع صيغة النداء «اللهُمَّ» هنا- كما في عموم أدعية النبي ﷺ- في صدر الدعاء المهيئ لمحاور الذكر والاعتراف من جهة، والدعاء والرجاء من الجهة الأخرى، وبُنِي كلٌّ ذلك عليها لما سبق أن ذكرتُه من عظيم عطائها النفسي..

القبس الخامس: صيغة النداء «اللهُمَّ» تبدأ بتفخيم اللام- التي لا تُفَخَّمْ- في اللغة كلها- إلا في لفظ الجلالة- فيمتلئ الفم بها؛ انعكاسا لامتلاء النفس يقينًا بالله وعُلْقةً به ﷻ، وثقةً فيما عنده سبحانه، ثم يتبع ذلك الدفْقُ الهوائي القوي من الجوف عبر حرف الهاء الضعيف، وذلك يقرر إخلاصا وانكسارا وضعفا وتذلُّلا من العبد بين يدي الله القوي القادرﷻ، ذلك الانكسار الذي تنُمُّ عنه الهاء بضعفها- في الإلحاح على الربّ ﷻ، ثم يأتي التشديد بالضغط على الميم في آخر تلك الصيغة «اللهُمَّ» ليحكي شدة الإلحاح على الله تعالى برجاء القبول والعفو عن العبد المقرّ..

المبحث الثاني

أقباس من بلاغة النبوة في مخاطبة العبد ربَّه ﷻ بما هو ﷻ أهلُه من توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية

نَصُّ مخاطبة العبد ربَّه ﷻ بما هو – سبحانه – أهلُه: «أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ».

هذا النص يتكون من مقطعين معنويين متمايزين، على الوجه التالي:

المقطع الأول: الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية لله ﷻ لا شريك له: «اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ».

المقطع الثاني: الإقرار بنسبة الخلق إلى الله– وحده لا شريك له– والتصريح بمقتضيات هذه النسبة: «خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ».

أولا: من أقباس من البلاغة النبوية في المقطع الأول: الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية لله ﷻ لا شريك له: «أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»:

القَبَس الأول: بَدْءُ الذكرِ الشريف– بعد النداء الشريف– بالإقرار بكلمتي التوحيد– توحيدِ الربوبية وتوحيدِ الألوهية–، ومجيء أولاهما توطئة للثانية وبناء الثانية منهما على الأولى– كما سيأتي قريبا– إن شاء الله ﷻ.

وثانيتهما– كلمة الاعتراف بتوحيد الألوهية– هي الكلمة التي لا يزال النبي ﷺ يُلِحُّ على تقريرها في نفسه، وفي نفوس أتباعه، ويجدّ في نشرها بين الناس وإشاعتها في أرجاء الخلق أجمعين؛ لأنها أحقّ الحقائق، وبوابة الدين، وقد تغني عن سواها من التكاليف، ولا يغني عنها جميع ما سواها من أمور الدين، وقد تُغْفَر معها أصناف الذنوب ولا تُقْبَل بدونها جميع التكاليف، وهي الحقيقة التي أقام الله ﷻ عليها الكون،

وهي أفضل ما قال النبيون١- كما أخبر المعصوم... إلخ.

القبس الثاني: صِيَاغَةُ توحيد الربوبية في واحدة من صور التخصيص والحصر، ثم صياغة توحيد الألوهية- كذلك- في صورة أخرى من صور التخصيص والقصر؛ لأن تلك المعانيَ معانٍ جليلةٌ، يجب الاحتفاءُ بها والاحتشادُ لها، ولا يليقُ بها أن تساقَ هكذا سَاذَجَة، وبلا احتفال واحتفاء، حتى وإن لم يكن الذاكرُ شاكّا ولا منكِرا، ولا يوجِّه خطابَه إلى شاكٍّ أو منكِر، وذلك أمر مقرّر لدى العلماء، يقول ابن حجر- رحمه الله ﷻ في الفتح: «وَقَدْ يَكُونُ التَّأْكِيدُ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْقَضِيَّةَ فِي نَفْسِهَا مِمَّا يُهْتَمُّ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مُنْكِرٌ»٢..

فكان من كمال بلاغته الشريفة ﷺ ومن تمام المطابقة والملاءمة أن يكسو اعترافه- بحقيقة الحقائق- ما يليق بها من أساليب الاحتفال، وأن ينوّع في الأسلوب فيأتي بتوحيد الربوبية في صورة القصر بطريق تعريف الطرفين ليتهيّأ الأسلوب لشرف الخطاب: «أَنْتَ رَبِّي»؛ وللتصريح بنسبة الربوبية لله الواحد، بذكر ضمير الخطاب المباشر «أنت»، دعما لفكرة الإقرار وكمال الاعتراف، ثم التسليم بتوحيد الألوهية في الأسلوب الملائم له احتفاء وتبجيلا «النفي والاستثناء»- الذي من شأنه دعمُ الفكرة-، ثم ترجيح الإتيان بالمقصور عليه في قصر توحيد الألوهية كذلك ضميرَ الخطاب المباشر «أنت»، فيتّسق البدءُ- بهذا الضمير المحقِّق لشرف الحضور للإقرار بين يديه تعالى بالربوبية- والانتهاء- به كذلك في الإقرار بتوحيد الألوهية-؛ فيتحقّق- إلى ما سبق- التناغم بدءًا ومنتهى: «أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»..

---

(١) عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ. وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: (٢) لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ». الموطأ للإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، ت. محمد مصطفى الأعظمي، ط.١ مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية- أبو ظبي- الإمارات ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/٧٤.

القبس الثالث: بِنَاءُ النبيِّ ﷺ اعترافَهُ بتوحيد الألوهية على اعترافِه بتوحيد الربوبية، إذ قدّم النبيُّ ﷺ توحيدَه الله ﷻ وإفرادَه إياه بالربوبية أوّلا، فقال: «أَنْتَ رَبِّي»، ثم بنى عليه توحيدَه الله ﷻ وإفرادَه إياه بالألوهية ثانيا، فقال: «لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»؛ وفي ذلك تدرّجٌ معنويٌّ منطقيٌّ لافت ومقنع ؛ لأن مَن يُربِّي وحْدَه العبدَ، ويتكفّله، ويتعهّد مصالحَه ويحوطُه بأنواع التربية البدنية والتهذيبِ الروحيِّ- جديرٌ بأن يفرَد بالعبادة، وأن يُخْتَصّ بالتوحيد، وأن يُعترَف له بهذا دُونَ سواه؛ فذلك حقّه لا يُمارَى فيه، فقال ﷺ: «أَنْتَ رَبِّي- لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»..

القبس الرابع: إيحاءُ الإضافة في «رَبِّي»: إذ تفيض تلك الإضافةُ بفيض من الإشارات النفسية المفعَمَةِ إيمانا- المطويةِ هنا، المنشورةِ في آثارٍ أخَرَ- منها:

- شعورُ العبد بالأمن الغذائي المتوازن والمضمون بموجب تلك الإضافة «رَبِّي»؛ ولعل اجتماع وصف «الرب» في السياق مع «الإله» يوجّه «الربُّ» نحو التربية والتعهد المادي، ويوجه «الإله» نحو العبادة الروحية، فنِعم الربُّ ربٌّ يَبسُط ويَقبض حسْب مصلحة العبد المطلقة بموجب علم العليم الخبير- سبحانه-، ففي الأثر «إِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى، لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ، لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ»[1]، وفي رواية أخرى «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَفَسَدَ حَالُهُ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا

(١) بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار ٣٧٧/١ لأي بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (ت: ٣٨٠هـ)، ت. محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، ط.١ دار الكتب العلمية- بيروت / لبنان١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، وإن كان الألباني ضعفه جدا في السلسلة الضعيفة فإنه لم يحكم بوضعه، تراجع: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة برقم ١٧٧٥، ٢٥٦/٤ لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت: ١٤٢٠هـ)، ط.١ دار المعارف، الرياض – المملكة العربية السعودية١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَفَسَدَ حَالُهُ»١.

– شعور المؤمن الذاكر بالأمن الصحي المتّزن، المحتكم إلى الحكمة الربانية المطلقة بموجب تلك الإضافة «رَبِّي»، ففي الحديث السابق: «وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الصِّحَّةُ، لَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا السَّقَمُ، لَوْ أَصْحَحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ»٢.

– شعور العبد الذاكر بالأمن العام بموجب تلك الإضافة «رَبِّي»، ففي الحديث القدسي السابق: «وَذَلِكَ أَنِّي أُدَبِّرُ أَمْرَ عِبَادِي بِعِلْمِي بِقُلُوبِهِمْ، إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ»٣.

القبس الخامس: الجمع في «سيّد الاستغفار» بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية يلفت إلى تمايز الإيمان بهما جميعا في وعي المسلم الذاكر بهذا الذكر الشريف، ويمكن إجمال القول في اختلاف دلالاتي «الربوبية والألوهية» بأنهما مصطلحان يتمايزا الدلالة إذا اجتمعا– كما هنا–، ويتحدا الدلالة إذا افترقا– كما في نصوص شرعية لا حصر لها–، قياسا على ما ورد عن علماء الأمة في مصطلحي «الإسلام والإيمان»، إذ «إنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا»٤.

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح٤/١٧٠٥ لعلي بن (سلطان) محمد، أبي الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ)، ط.١ دار الفكر، بيروت– لبنان ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) «ومعنى ذلك أنه إذا ذُكر الإسلام مع الإيمان كَانَ المراد بالإسلام هو الاستسلام الظاهريّ، وبالإيمان هو الاعتقاد الباطنيّ، كما فسّره النبيّ –صلى الله عليه وسلم– فِي حديث خبر جبريل – عليه السلام–، ونظيرهما فِي هَذَا المعنى: الفقير والمسكين، فإنهما إذا ذكرا فِي موضع واحد، كما فِي آية الصدقة، كَانَ معنى المسكين منْ لا شيء له، كما قَالَ الله تعالى: {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ}، بخلاف الفقير، فإنه منْ له شيء منْ المال، إلا أنه قليلٌ» شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى». لمحمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي الوَلَّوِي، ط.١ دار المعراج الدولية للنشر، ودار آل بروم للنشر والتوزيع ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م.

والجمع- في الإقرار الإيماني- بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية- بذلك التمايز الدلاليّ الفصيح- قلَّما[1] ورد في النصوص الدينية- قرآنيةٍ وحديثيةٍ-، مما يسهم في رفعة ذلك الذكر الشريف ليكون بحق: «سيِّد الاستغفار»، وأن يُبنى عليهما ما وليهما من جملة الإقرارات الإيمانية، والضراعة بالاستغفار..

والجمع بينهما يدعم- في نفس العبد الذاكر- الأمنَ والأمان من حيث الضمانة اليقينية للرزق المدبَّر من جهة «الربوبية»، كما يدعم- في النفس- القناعة التامة بالمعبود الحقّ من الجهة الأخرى «الألوهية»، ولا على العبد بعدهما من قلق يثير هَمَّه، بل يتحقق له عقيدة صافية راسخة تثير همَّتَه نحو ربّه الواحد الرزاق وإلهه الواحد المعبود ﷻ..

ولا يختلف اثنان على أن الإنسان يتكون من: جسدٌ وروح، فهما عنصران يتكاملان ويتفاعلان وينسجمان، ومن المنطقِ أن يحتاج كل منهما إلى غذاءٍ يناسبه؛ كي تستمر رحلة حياتيهما الآنية ثم تمتد رحلة حياتيهما الباقية سعيدةً ناجيةً من كل تعاسة..

ومن المسلَّمات أن غذاء الجسد يجب أن يناسبه ويشابهه فكلاهما (يخرج من الأرض)؛ فالجسد مادَّةٌ تقوم على غذاء ماديّ تحتانيٍّ مثله.. كما أن غذاء الروح يناسبها ويشبهها؛ فيكون غذاء الروح لطيفا خفيفا يلائم لطافتها ويشبهها؛ فيجب أن (يَنْزِل من السماء).. وحينئذٍ يتم للجسد والروح التكاملُ من جهتيْ (عالَم المادة التحتانيّ للجسد، وعالم المُثُل العلويّ للروح)..

ومن العجيب أن تجد كلَّ الناس مهمومًا بغذاء الجسد ومن جهته التحتانيّة؛ فيتفننون في أنواع الزراعات، وتفعيل الهندسات الوراثية لتحسين السلالات، وتطوير المنتجات...إلخ، أما غذاء الروح فقليلا ما يهتمون به، وإنْ فمِن جهات شتى- غير

(١) أقول: قلما، ولا أقول: مطلقا.

سماوية- لا تزيد الروح إلا تعاسة؛ كالغناء، والرقص، ومظاهر الفجور والفسوق مما يسمونه فنونا، وما إليهما مما لا تزيد الروح إلا تعاسة ودمارا..

ومن الجميل في حياة المسلم بخاصّة أن أول آية في كتابه العزيز الكريم الحكيم في الفاتحة- بعد البسملة- ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ تضمن للعبد سعادته في جهتيْه: (الجسد والروح)..

أما أمانُه البدنيُّ الماديّ فمضمون له في: ﴿رب العالمين﴾ أي: تعهُّدًا وتربيةً- خلال رحلة بدنه في الحياة الدنيا.. وأما أمانُهُ الروحيُّ المعنويّ فمضمونٌ له في عبوديته ﴿لله﴾ أي: توجُّهًا وشكرًا أيضا خلال رحلة روحه في الحياة الدنيا..

وذلك بعينه ما نجده- من أمان الجسد وأمان الروح- في أول جملة من حديث «سيد الاستغفار»: «أنت ربي، لا إله إلا أنت»- مع فوارق ما بين تراكيب كلام الخالق عز وعلا وتراكيب كلام المخلوق سيد الخلق ﷺ- ومقتضيات تقديم كل من الربوبية والألوهية في كل من الوحيين الشريفين..

وهكذا نجد «آية» مكوّنة من كلمات أربع: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾- في رأس فاتحة الكتاب التي هي أم القرآن ورأس القرآن- إن جاز هذا التشبيه- كما نجد جملتي «أنت ربي، لا إله إلا أنت» في مطلع «سيد الاستغفار»- توجز قضية الربوبية وتخلّصها ﴿لله﴾ تعالى، كما تحسم قضية الألوهية وتوجبها ﴿لله﴾ سبحانه، وترتب على ذلك قصر قضية العبودية ﴿الحمد﴾- بكافة مظاهرها- على الله الواحد الحق الذي لا شريك له ولا كُفُوًا..

أقول: لعلّ اشتمالهما على تذكير العبد بجهتيْ ضمان غذائه: الروحي من جهة الألوهية في ﴿لله﴾، والماديّ من جهة الربوبية في ﴿ربّ﴾ من أسرار الفاتحة- التي أهَّلتها لوجوب تكرارها في بداية كلّ صلاة، كما أنه من أسرار تأهل تلك الصيغة النبوية للوصف بـ «سيد الاستغفار» وأن «مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ

أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» كما جاءت البشارة في آخر «سيد الاستغفار»..

أقباس من بلاغة المقطع الثاني: الإقرار بنسبة الخلق إلى الله- وحده لا شريك له- والتصريح بمقتضيات هذه النسبة: «خَلَقْتَنِي، وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ»:

القبس الأول: لعلك توافقني رؤيتي- أن في معاني جُمَلِ هذا المحور- الثاني- نَشْرًا لِمَا ورد من معانٍ في جُمَل المحور الأول لفًّا، غير أنه لفٌّ ونشْرٌ من نوع مختلف عما ألفناه في كتب البديعيين؛ لأن فحوى النشر مقتضٍ لفحوى اللَّف، وكأنه سببٌ فيه؛ لأن جملة «خَلَقْتَنِي»- وهي الجملة الأولى في هذا المقطع- مرتبطة ارتباطا معنويا قويّا بمضمون جملة «أَنْتَ رَبِّي»- وهي الجملة الأولى في المقطع السابق- إذ الخلْق والإيجاد- هنا- يقتضي التربية والتعهُّد- هناك-، وقد بيَّن صاحب مرقاة المفاتيح موقع جملة «خلقتني» بأنها «اسْتِئْنَافُ بَيَانٍ لِلتَّرْبِيَةِ»١..

كذلك ترى الجملتين- الثانية والثالثة- في هذا المحور الثاني «وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ» مرتبطتان ارتباطا معنويّا وثيقا بمضمون الجملة الثانية هناك في المقطع الأول «لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»، ولكن ليس على سبيل السببيّة، ولكن على سبيل التكرار المعنوي، وهل ترى فحوى العبادة والثبات على الوفاء بالعهد الرباني- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]. هل ترى ذلك- هنا- شيئا غيرَ الاعتراف والإقرار بفحوى كلمةِ التوحيد- هناك- «لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»؟. وبهذا يتجلى لك أيها القارئ الكريم دعمُ النبي ﷺ في هذا الذكر الشريف لقضيّة التوحيد في نفسه ونفوس أتباعه، بعد دعمه الاعتراف والإقرار بقضية الخلق والتربية، وإلحاحُه على التوحيد بتكرارها بصيغة أخرى وبتراكيب جديدة، وبنشرها بعد لفِّها..

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٦١٩/٤.

القبس الثاني: في إيثار مادة الخَلْق «خَلَقْتَنِي» على المواد اللغوية الأخرى- من مثل «أوجدتني»- إذ فيها صريح الإقرار لمن ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وإلى ذلك فالخلق يشعر بكمال التقدير في الصنعة، وحسن التلاؤم بين أجزائها، بخلاف الإيجاد الذي ربما يكون كيفما اتفق، ولذلك سمي الخلوق خلوقا لأن «الخلوق من الطيب أجزاء خُلِطت على تقدير، والناس يقولون لا خالق إلا الله، والمراد أن هذا اللفظ لا يطلق إلا لله؛ إذ ليس أحد إلا وفي فعله سهو أو غلط يجري منه على غير تقدير غير الله تعالى»١.

القبس الثالث: في تكرار ضمير التكلم «أَنَا... وَأَنَا...» مع كل من الجملتين «أَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ...» وذلك لتقرير نسبة عبودية الذاكر الأول وتأكيد الاعتراف بها لربَّه ﷻ، وفي تقرير نسبة عبوديته إلى نفسه الشريفة فورَ إقراره بنسبة خلقه إلى ربه- تعالى- «خَلَقْتَنِي، وَأَنَا عَبْدُكَ» فيه تنبيه على سببيّة الخلق في استحقاق العبادة والإذعان للخالق ﷻ.

القبس الرابع: في إيثار مادة العبودية في اعترافه الشريف «عَبْدُكَ»، حيث تتجلَّى أقوى صور التذلُّل بين يدي الله ﷻ، وذلك يحقِّق في نفس العبد الشعور بأقوى صور العزّة النفسية، والطمأنينة الروحيَّة- إلى حدّ أنه ربما داخل الرياءُ نفس العبد بكمال عبادته افتخارا وهو محرَّمٌ شرعا- وصدق الشاعر المؤمن حيث لخّص ذلك الشعور في قوله:

حَسْبُ نَفْسِي عِزّا بِأَنِّيَ عبْدُ *** يَحْتَفِي بِي بِلَا مَوَاعِيدَ رَبُّ

(١) معجم الفروق اللغوية ص٢٢٥، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، ت. الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، ط.١ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم» ١٤١٢هـ.

هُوَ فِي قُدْسِـهِ الأَعَزُّ ولَكِنْ *** أنَا أَلْقَى مَتَى وَأَيْنَ أُحِبُّ[1]

القبس الخامس: إيثار التعبير بأداة الاستعلاء «علَى» في قوله الشريف «عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ» وذلك لتَضَمُّن متعَلَّقها معانيَ كثيرة من مثل «الاستمرار، والمواظبة، والبقاء، والإقامة، و... إلخ»، وذلك يقرِّر الاعترافات السابقة ويدعمها، ويهيئ القبول للرجاءات اللاحقة. ومعنى: «وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ» أَيْ: «أَنَا مُقِيمٌ عَلَى الْوَفَاءِ بِعَهْدِ الْمِيثَاقِ، وَأَنَا مُوقِنٌ بِوَعْدِكَ يَوْمَ الْحَشْرِ وَالتَّلَاقِ»[2].

و«العهد: الذي أخذه الله على عباده في أصل خلقهم حين أخرجهم من أصلاب آبائهم أمثال الذر: ﴿وأشهدهم على أنفسهم أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢]. فأقروا له في أصل خلقهم بالربوبية، وأذعنوا له بالوحدانيَّة، والوعد: هو ما وعدهم تعالى أنه من مات لا يشرك منهم بالله شيئًا، وأدّى ما افترض الله عليه أن يدخل الجنة»[3].

القبس السادس: الاعتذار عن التقصير، والاعتراف بالقصور عن القيام بحقّ الخالق ﷻ في قوله الشريف ﷺ «مَا اسْتَطَعْتُ»، فـ «اشْتِرَاطُ الِاسْتِطَاعَةِ اعْتِرَافٌ بِالْعَجْزِ وَالْقُصُورِ عَنْ كُنْهِ الْوَاجِبِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى» د٤؛ فمهما يبلغ العبد في العبادة ويحاول القيام بالواجبات الدينيّة والنوافل الشرعية، ومهما يبتعد عن الكبائر الموبقة وعن اللمم الصغائر فإنه لن يبلغ أداء حق ربه- سبحانه- ولذلك جاء في صحيح البخاري: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ

(١) يرجع: تفسير الشعراويّ- الخواطر ٦٠/١، و١٢٣٧/٢، لمحمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ)، ط. مطابع أخبار اليوم، د. ت.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٦١٩/٤.

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٥/١٠.

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٦١٩/٤.

يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ: إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ»١، وفي رواية للإمام مسلم «لَا يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلَا يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ»٢.

القبس السابع: «أعلم النبي ﷺ أمته بقوله: (أنا على عهدك ووعدك ما استطعت) أن أحدًا لا يقدر على الإتيان بجميع ما لله ﷻ، ولا الوفاء بجميع الطاعات والشكر على النعم، إذ نعمُه تعالى كثيرة ولا يُحاط بها، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]. فمن يقدر مع هذا أن يؤدى شكر النعم الظاهرة، فكيف الباطنة؟ لكن قد رفق الله بعباده فلم يكلفهم من ذلك إلا وسعهم، وتجاوز عما فوق ذلك، وكان ﷺ يمتثل هذا المعنى في مبايعته للمؤمنين، فيقول: أبايعكم على السمع والطاعة فيما استطعتم»٣.

القبس الثامن: الجناس اللافت بين «عهدك» و«وعدك»، إلى ما فيهما معا من إيجاز القِصَر، بما طَوَيَاه من طُول رحلة العبد خلال حياته كلها منذ مبدأ الخلق إلى منتهى الآجال والإيواء إلى دار المآل..

القبس التاسع: كثرة الضمائر في هذا المقطع المعنوي المهم من الذكر الشريف: «خَلَقْتَنِي، وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ»، يدل على كمال الحضور النفسي بين يدي الخالق ومدى الاتصال الروحي بالرفيق الأعلى، والارتقاء عن الدنيا الزائلة، والتطلع إلى الأبقى عند الله ﷻ.

---

١ صحيح البخاري ١٢١/٧ بَابُ تَمَنِّي المَرِيضِ المَوْتَ برقم ٥٦٧٣.

(٢) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم) ٢١٧١/٤ بَابُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى برقم ٢٨١٧، لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، ت. محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي- بيروت، د. ت.

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٧٥/١٠.

المبحث الثالث

أقباس من بلاغة النبوة في مخاطبة العبد ربه ﷻ بما الذاكرُ أهلُه مِنْ الإقرار للهِ ﷻ بالنعمة، والإقرار من العبد- إزاءها- بالذنب"

نصُّ مخاطبة النبي ﷺ ربَّه بما الذاكرُ أهله: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ علي، وأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي»، وسنقبس ما يتاح لنا من أقباس هذا النص الشريف من خلال مقطعين متمايزي الدلالات:

المقطع الأول: الاستعاذة بالله ﷻ من سوء العمل: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ»[1]:

والنظم في هذا المقطع مفعم بالإشارات الإيمانية، الناضحة في صيغة الاستعاذة النبويّة بالله ﷻ من سوء العمل، والإقرار بنعمة الله ﷻ والإقرار إزاءها بذنب العبد: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ». وبإنعام النظر في هذه الاستعاذة تتجلى لنا الأقباس البلاغية التالية:

القبس الأول: في لفظة «أعوذ» يلفت أمران: الأول: عطاء المادة اللغوية «عاذ»، فهي مادة ثرية غنية شاملة، تطوي وتنشر جملة معانٍ بطريق التضمين، إذ إن معناها في اللغة «ألجأ»- كما مر في الغريب-، وألجأ» يتعدى بـ «إلى»، فتعديته هنا بـ «الباء» يعطي عدة معانٍّ أبرزها «أحتمي، ألتجئ، أستمسك، ألوذ، أعتصم، أتقوَّى،

(١) يُقَالُ: عُذْتُ بِهِ أَعُوذُ عَوْذاً وعِيَاذاً ومَعَاذاً: أَيْ لَجأت إِلَيْهِ.، والمَعَاذ المصدرُ، وَالْمَكَانُ، وَالزَّمَانُ: أَيْ لَقد لَجأت إِلَى مَلْجأ ولُذْت بِمَلاذٍ. وَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُ «الاسْتِعَاذَة والتَّعَوُّذ» وَما تصرَّف مِنْهُمَا. والكُلُّ بمْعنىً. وبه سُمِّيت «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ». النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) ت. طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي ط. المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

أستجير، اكتفي،... إلخ». والمقام المعنوي والنفسي للمستغفر يقتضيها بقوّة، بِرًّا بنفس المتعوِّذ؛ إذ إنها أشمل تلك المواد اللغوية دلالاتٍ، وأفعمها إشاراتٍ..

الثاني: عطاء الصيغة الصرفية «المضارعة» في: «أعوذ»؛ إذ إن المضارعة متراحبة الزمان، مترامية مستوعبة متجدِّدة، قائلة بأن العبد الذاكر المستعيذ بـ «سيد الاستغفار» متجدِّدُ الثقة بربه- تعالى- مستمرُّها، متجدِّد الاحتماء والاكتفاء والاستمساك بربه مستمرُّه، مهما تقلب في كون الله ﷻ، ومهما اختلف عليه الليل والنهار..

القبس الثاني: تقديم المتعلَّق الأول- الجار والمجرور- المستعاذ به سبحانه- «بك» في قوله ﷺ «أعوذ بك من شر...» على المتعلَّق الثاني- المستعاذ منه «من شر ما صنعت» إذ تتجلّى- في ذلك التقديم- قوةُ العُلْقة الروحية بالله ﷻ، كما تتجلى ثقة النفس المستعِيذة بالله ﷻ- في أتمّ صورها- في سَعة عفو الله الكريم، والهروب من صنائع النفس- التي بين جنبي العبد- إليه عز وعلا، فتمام عُلْقةُ النفس الشريفة المتعوِّذة بالله ﷻ وكمال ثقتها في سعة رحمته وعفوه ﷻ اقتضى تقديم ذلك في الذكر..

إن استشعار النفس- المتعوِّذة بالله ﷻ- الحصانةَ والأمانَ هنالك لدى تلك الرحاب الرحمية اقتضى التقديم؛ ليكافئ التقديم ذلك معالجة نفس العبدَ المتعوِّذ بالله ﷻ ويقتلع منها كل وجل، وينجِّيه من كل «شرٍّ» مهما كان «شرا» صريحا، ومعلوم أن كلام البليغ صورة مطابقة لما يجوس في نفسه، صورة معكوسةٌ من داخله على لسانه..

القبس الثالث: إيثار مادة «الصَّنِيع، أو الصِّناعة» في جملة «من شر ما صنعتُ» دون مادة «عمِلتُ» ناطق بتبرِّي العبدِ من كل حَوْل وطوْل، مفصِح بعدم خلوِّ عمل العبد من قصور وتقصير مهما كان «صنيعا» متقَنا؛ إذ مَن مِن المخلوقات يمكنه أن يضْطَلع بحقِّ الخالق العظيم مهما حاول وحاول؟؟

إن طبيعة «الصنعة» تدل على بذل مزيد الجهد وتعمُّد الإحسان، وتتميّز بالدقّة وتوفر المهارة والاحتراف، وذلك يذكِّرنا بمصطلح النقد القديم المبين عن التوجيه المقصود هنا: «الطبع والصنعة».. فإذا استعاذ العبد من «شر» عمل هو صنيع محكم، وصنعة متعمَّدة الإحسان كان تعوُّذه كناية عن تواضعه واعترافه بالتقصير وإذعانه بالقصور، وإنكار الثقة في الذات، والتوجّهِ بالكلية- في استمداد العفو بعد التبرؤ من تعمُّد الخطأ- إلى الله ﷻ.

وإذا تعوَّذ العبد من شر «صنيع» متقَنٍ كان تعوذه بالله تعالى- من باب الأولى- من شر ذنوبٍ وسيئات قارفها، وكان التعوذ- غير المذكور- من شر تلك الذنوب والسيئات أدخلَ في ذلك التعوُّذ المذكور، وكان المذكور اكتفاء بديعا عما دونه من اللمم الصغار..

القبس الرابع: إيثار «ما» الموصولة- أو المصدرية- دون «الذي» أتاح إطلاق الصوت بالمدّ، وكأني بالناطق بهذه الكلمة حينما تمتلئ بها نفسُه يمدُّها مدًّا يكافئ امتلاءَ نفسه هكذا «من شر مااااااااا صنعت»- برغم عُدْمَانِ مُوجِب المدّ بعدها من همزٍ أو تشديد أو عروض وقف.. فيطلقها المتعوِّذ ويطيلها، فيطيل معها إمرار شرور صنائعه على ذاكرته فيستوعب- تذكُّرا- صنائعَه كلَّها قدر الطاقة، وفي ذلك قمَّة الحضور النفسيّ لدَى العبد الضارِع، وفي الأثر «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ»١..

ولذا يتجلى معنى العموم والشمول في «ما» هذه، تهمةً للنفس بأن كل ما يصدر عنها لا يخلو من «شرٍّ» مهما ضؤُل أو ضخُم.. وفي ذلك نهاية التواضع النبوي

(١) الجامع الكبير - سنن الترمذي ٣٩٤/٥ باب ٦٦، برقم ٣٤٧٩ لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبي عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) ت. بشار عواد معروف، ط. دار الغرب الإسلامي- بيروت١٩٩٨م.

الشريف في مقام الانكسار بين يدي المولى ﷻ، وهو وإن كان ﷺ غير متهم بشر فإنه يعلم المسلمين الملوثين- قطعا- بالذنوب والآثام..

القبس الخامس: «مِن» في جملة «مِن شرّ ما صنعتُ» وهي تحتمل إشارتين: إحداهما: أن تكون تعليليّة للتعوُّذ؛ أي: ألوذ بك وألتجئ بسبب شر ما صنعت، أو من أجل شر صنائعي.. الأخرى: أن تكون بيانيّة للمتعوَّذ منه، ويكون المبيَّن محذوفا، تقديره- مثلا-: أعوذ وألوذ وأحتمي بك من شيءٍ هو شرّ ما صنعت، ولعل التأويل الأول أولى..

المقطع الثاني: الإقرار والرجوع بالنعمة إلى المنعم ﷻ، والإقرار والاعتراف- إزاءها- بالذنب مثبتا صراحة إلى العبد المذنب- حاشاه ﷺ-: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي»١:

ويتجلَّى لنا في ذلك المقطع من الأقباس البلاغية ما يلي:

القبس الأول: في مادة «أبوء» دلالة الاعتراف والإقرار، كما يلتمس منها دلالة الرجوع والعَوْد.. و«فَائِدَة الْإِقْرَار بالذنب أَن الِاعْتِرَاف يمحو الاقتراف»٢، وتلك المعاني المضغوطة في كلمة من ثلاثة أحرف أمارة الفصاحة النبوية الباهرة..

---

(١) يقال: باء بالذنب: أقرّ، وَيُقَال: قد بَاء فلَان بِذَنبِهِ إِذا احتمله كرها لَا يَسْتَطِيع دَفْعه عَن نَفسه. ينظر: كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) ت. د/ مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي. ط. دار ومكتبة الهلال د. ت
وقال في غريب الحديث «أَبُوء بنعمتك وأبوء بذنبي أَي أقرّ بذلك وألزمه نَفسِي وَمثله قَوْله فقد بَاء بهَا أَحدهمَا أَي التزمها وَرجع بهَا» غريب الحديث لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) ت. الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي ط.١ دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير ٦٣/٢ لزين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)، ط.٣ مكتبة الإمام الشافعي- الرياض ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

القبس الثاني: صياغة «أبوء» في قالب المضارعة تترجم حالة الانكسار المتجدِّد لدى العبد المستعيذ والمصاحِب له بين يدي المنعم المتفضل ﷻ.

القبس الثالث: التقابل النفسيّ بين الاعترافين الصادرين عن العبد: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ»، «وأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي» يفصح بقوةٍ عما في تلك النفس الشريفة من تواضع في الإقرار بالذنب إزاء الإقرار بالنعمة والفضل.. وهذا أدعى للقبول ومغفرة الذنوب، وإكمال النعمة، وفي البخاري «فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه» كما مر آنفا..

القبس الرابع: تقديم الجار والمجرور «لك» في الجملتين وراءه قَصْر الاعتراف بالنعمة على كونها من عند الله ﷻ، لا يشاركه فيها غيره سبحانه، وكذلك قصْر الاعتراف بالذنب بين يدي الله ﷻ دون الاكتراث لغيره ﷻ رجوعا بالحق إلى أهله، فإن الله ﷻ وحده أهلٌ لأن يُعْتَرف له بالفضل من قِبَلِه وبالذنب من قبَل العبد..

القبس الخامس: التعبير بحرف الاستعلاء «على» في القيد «عليَّ» يخيِّل نزول النعم من الجهة الأعلى، وفي فتح القدير «قال وهب: رأيت في بعض الكتب الإلهية «يا ابن آدم ما قمتَ لي بما يجبُ عليك... خيرِي إليك نازل، وشرك إليَّ صاعد»[1]..

القبس السادس: لم يقل النبي ﷺ «أبوء لك بنعمتك إليَّ» بل قال «بنعمتك عليَّ»، وذلك تأدبا مع ربه تعالى، وذلك مما يقتضيه النظم هنا؛ ليلائم إظهار كمال التواضع والانكسار بين يدي ربه ﷻ، كما أن فيه متابعةً للنظم الشريف ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

وقد التقط العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمد الأمين الخضري- في بحثه المتفرِّد في بابه: «من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم»- من وقفة بارعة للخطيب

(١) فيض القدير ٤/٤٩٣.

الإسكافي في «درة التنزيل» حيث يقول: «كل موضع عُدِّي فيه الإنزال بـ «على» فإن المراد به أنه شرَّفك، وأعلى بذلك ذكرك، لتؤدي ما عليك فتنذر وتبشر»١.

لمح د. الخضري من تلك اللفتة المتفردة من بين كتب التفاسير كلها- كما يقول د. الخضري- الفروقَ الدلالية بين تعدية الفعل «أنزل» بـ «على» وتعديته بـ «إلى» في صيغتي: ﴿أنزلنا عليك﴾، و﴿أنزلنا إليك﴾ في الذكر الحكيم- وبسطها- بعد ما أطال العكوف على سياقاتهما- فرأى «أن (على) تأتي للدلالة على التشريف، و(إلى) تنحو منحى التشديد في التبليغ، والعمل بالمنزَّل...- ورأى ذلك- ظاهرة عامة تبدو فيها روح التكريم والتشريف للأنبياء في كل المواطن التي تعدَّت بـ (على)، وروح الحث والاستنهاض وحدّة النبرة في الدعوة إلى التمسك بالمنزَّل، والالتزامات به، وعدم الحيدة عنه أو التفريط فيه فيما تعدَّى بـ (إلى)»٢.

فتعدية الفعل «أنزل» مثبتًا إلى الله جل جلاله مخاطبًا به سيدُ المرسلين ﷺ بحرف الجر «على» يخُصُّه ﷺ بمكرمة، أو يمتن عليه هو بفضيلة، أو يفرده ﷺ بحكم، أو ما هو من ذلك بسبيل..وجريا على ذلك التوجيه- الذي قنعت به- نفهم من التعدية بحرف الجر «على» في قوله الشريف ﷺ: «أبوء لك بنعمتك عليَّ» عُمْقَ شعور العبد بالنعمة الخاصَّة، وأثر الإحساس بالاغتباط بالفضل الرباني العميم، والترجمة القولية لذلك الإحساس، والتصريح الفصيح بتلك الغبطة- من خلال إيثار حرف الجر «على» في جملة الاعتراف «أبوء لك بنعمتك علي»..

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص١١٠٧ لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (المتوفى: ٤٢٠هـ) دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، ط.١ جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصَى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

(٢) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ص ١٠٧ للدكتور محمد الأمين الخضري ط.١ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

القبس السابع: في متابعة الذكر النبوي الشريف لفظ القرآن الكريم بإفراد النعمة في قوله «نعمتك»، إذ قال الله تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. قال صاحب دليل الفالحين «المفرد المضاف من صيغ العموم أي: بنعمتك التي لا تحصر ولا تحصى»١،

وقال في سبل السلام « وَأَفْرَدَهَا لِلْجِنْسِ»٢، ولعل سر إيثار الإفراد تعدد المنافع في النعمة الواحدة، أو أن النعمة الواحدة تفضل جميع عبادات العبد حياته كلها، كما جاء في الحديث الطويل: «إِنَّ لِلَّهِ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ عَبَدَ اللَّهَ تَعَالَى خَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ... فَسَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى بَعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ قَالَ: فَفَعَلَ... فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَلَائِكَةِ: قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ قَالَ: فَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ...»٣.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٧٢٠/٨، لمحمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (ت: ١٠٥٧هـ)، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، ط.٤ دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

(٢) سبل السلام ٧١٠/٢، لمحمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبي إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (ت: ١١٨٢هـ)، ط. دار الحديث، د. ت.

(٣) المستدرك على الصحيحين برقم ٧٦٣٧ لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ)، ت. مصطفى عبد القادر عطا، ط.١ دار الكتب العلمية – بيروت١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

القبس الثامن: قال الكِرْماني في الكواكب الدراري: «ذَكَرَ اللهَ ﷻ بأكمل الأوصاف، وذَكَرَ العبد نفسه بأنقصِ الحالات وهي أقصى غاية التضرع ونهاية الاستكانة لمن لا يستحقها إلا هو»١.

القبس التاسع: في النظم النبوي الشريف في هذا المقطع ما رواه ابن حجر العسقلاني عن الطِّيبِيُّ قال: «اعْتَرَفَ أَوَّلًا بِأَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُقَيِّدْهُ؛ لِأَنَّهُ يَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْإِنْعَامِ، ثُمَّ اعْتَرَفَ بِالتَّقْصِيرِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَقُمْ بِأَدَاءِ شُكْرِهَا، ثُمَّ بَالَغَ فَعَدَّهُ ذَنْبًا مُبَالَغَةً فِي التَّقْصِيرِ وَهَضْمِ النَّفْسِ، قُلْتُ- والكلام لابن حجر- وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ أَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي أَعْتَرِفُ بِوُقُوعِ الذَّنْبِ مُطْلَقًا؛ لِيَصِحَّ الِاسْتِغْفَارُ مِنْهُ، لَا أَنَّهُ عَدَّ مَا قَصَّرَ فِيهِ مِنْ أَدَاءِ شُكْرِ النِّعَمِ ذَنْبًا»٢.

(١) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري ٢٢/١٢٤.

٢ فتح الباري بشرح صحيحي البخاري لابن حجر العسقلاني ١١/١٠٠.

المبحث الرابع

أقباس من بلاغة النبوة في "الضراعة إلى الله ﷻ بطلب المغفرة"

نَصُّ الضراعة النبوية إلى الله ﷻ في «سيد الاستغفار» بطلب المغفرة: «فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»، وفي هذا النص الشريف نقبس الأقباس البلاغية النبوية التالية:

القبس الأول: ترتيب طلبِ المغفرة من مالكها الواحد ﷻ على الإقرار الصريح لله تعالى بنعمته وللعبد بذنبه: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» أسلوب قوي لكمال التذلل المؤذن بتمام القبول..

إذ لما قدَّم النبي ﷺ الإقرار بنسبة النعم كلها إلى الله ﷻ، ثم الإقرار بنسبة الذنب إليه ﷺ تهيَّأ النظمُ الشريف لطلبِ المغفرة، ففرَّع طلبَ المغفرة بـ «الفاء» على ذينِك الإقرارين، ثم دَعَمَ طلب المغفرة بنسبة القدرة على المغفرة إلى الله وحده لا شريك له في ذلك.. فترتيب طلب المغفرة على الإقرار بنسبة النعمة إلى الله والذنب إلى العبد توطئةٌ أدعى إلى تحقيق الطلب، قال ابن حجر: «قَوْلُهُ: فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْت». يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ مَنِ اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ غُفِرَ لَهُ، وَقَدْ وَقَعَ صَرِيحًا فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ الطَّوِيلِ، وَفِيهِ: أن الْعَبْدُ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وَتَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

القبس الثاني: قَصْرُ القدرة على مغفرة الذنوب على الله وحده لا يشاركه فيها غيره- سبحانه- وبأسلوب النفي والاستثناء، فقال «فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْت»، ومعنى العبارة وإن كان لا يُنْكَر ولا يُشكُّ فيه غير أنه من الأهمية بحيث لا يساق هكذا ساذَجا غُفْلًا بلا احتشاد ولا احتفاء، قال ابن حجر العسقلاني في الفتح: «وَقَدْ يَكُونُ التَّأْكِيدُ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْقَضِيَّةَ فِي نَفْسِهَا مِمَّا يُهْتَمُّ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مُنْكَرٌ»[1].

(١) فتح الباري ١/٧٤.

القبس الثالث: إيثار «المغفرة» دون «العفو»- مثلا- لاقتضائها- إضافة إلى إسقاط العقاب- إيجابَ الثواب مكان العقاب- ولا يتأتى إيجاب الثواب مكان العقاب مع «العفو»- قال أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية- «الغفران يَقْتَضِي إِسْقَاطَ الْعِقَاب، وَإِسْقَاطُ الْعِقَاب هُوَ إِيجَاب الثَّوَاب، فَلَا يسْتَحق الغفران إِلَّا الْمُؤمن الْمُسْتَحق للثَّواب»١.

وقد اشترط الشرع للظفر بالجنة جزاءً لمن يرددها- أي الكلمات٢- «سيد الاستغفار» أن يقولها: «موقنًا بها» يعنى «مخلصًا من قلبه، ومصدقًا بثوابها»٣. قال في عمدة القاري «قَوْله: «من قَالَهَا موقناً» أَي: مخلصاً من قلبه مُصدقا بثوابها. قَوْله: «وَمن قَالَهَا من النَّهَار» وَفِي رِوَايَة النَّسَائِيّ: فَمن قَالَهَا قَوْله: «فَمن أهل الْجنَّة» وَفِي رِوَايَة النَّسَائِيّ «دخل الْجنَّة»، وَفِي رِوَايَة عُثْمَان بن ربيعَة: «إِلاَّ وَجَبت لَهُ الْجنَّة»، قيل: الْمُؤمن وَإِن لم يقلها فَهُوَ من أهل الْجنَّة. وَأجِيب بِأَنَّهُ يدخلهَا ابْتِدَاء من غير دُخُول النَّار لِأَن الْغَالِب أَن الموقن بحقيقتها الْمُؤمن بمضمونها لَا يعْصي الله تَعَالَى، أَو لِأَن الله يعْفُو عَنهُ ببركة هَذَا الاسْتِغْفَار»٤، «ويحتمل أن يكون هذا فيمن قالها ومات قبل أن يفعل ما يغفر له به ذنوبه»٥، وقيل: «أَي مِمَّن اسْتحق دُخُولهَا مَعَ السَّابِقين أَبُو بِغَيْر عَذَاب»٦.

---

(١) الفروق اللغوية ٢٣٥.

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ١٧٦/٩ لأحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبي العباس، شهاب الدين (ت: ٩٢٣هـ)، ط.٧ المطبعة الكبرى الأميرية، مصر ١٣٢٣هـ.

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٧٥/١٠.

(٤) عمدة القاري ٢٧٨/٢٢.

(٥) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ١٧٦/٩

(٦) التيسير بشرح الجامع الصغير ٦٣/٢.

الخاتمـــــــــة

وبعد، فإنه لمن دواعي غبطة العبد أن ينتمي إلى دين يمدُّه بمثل «سيد الاستغفار»، ويزوده صباحَ مساء بهذا الفيض الإيماني، ويحصّنه بتلك الحصانات النفسية النفيسة الكامنة في «سيّد الاستغفار»، فيجابه بها أخطار الحياة المحدّقة، ويحيا بها حياة السكينة والأمان، ويأمل- بعدُ- في جناتِ رب العالمين..

ومن خلال تلك الوقفة البحثيّة المتأنية إزاء بلاغة «سيد الاستغفار» يتجلّى لنا جانبان رائعان- أحدهما بلاغيّ تخصصي، والآخر عقدِيّ إيماني- على الوجه التالي:

أولا: الجانب البلاغي التخصصي: وذلك واضح في أن عمود البناء التركيبي لحديث «سيد الاستغفار» تأسس على:

عناصر التوكيد العربية التي تكشف عن تغلغُل معانيه الإيمانية النورانية في نفس الذاكر الأول ﷺ، وعمّا تدعمه منها في نفس كل مؤمن يردِّده إلى يوم القيامة، بحيث ترتقي روح العبد إلى ألا يكون بينه وبين الجنة إلا أن يموت، ومن تلك العناصر التوكيدية:

- أسلوب القصر، الذي تنوع ما بين تعريف الطرفين، والنفي والاستثناء، والتقديم..
- كثرة الضمائر، سواء ضمائر الخطاب «أنت . الكاف»، أو التكلم «أنا . ياء الإضافة»؛ مما يلح- في وضوح- على توكيد النسبة- نسبة النعمة إلى المنعم من جهة، ونسبة الذنب إلى العبد- في المقابل- من الجهة الأخرى..
- التقابل المعنوي الكاشف عن بُعْد ما بين الطرفين؛ بحيث تتجلى عظمة الخالق ﷻ وعظيم نعمائه على عبده الذاكر المستغفر بـ «سيد الاستغفار» من جهة، ويتجلى- في المقابل- من الجهة الأخرى ضعفُ المخلوق، وغلبةُ جهله بحقّ الخالق الرازق المستحق العبودية الخالصة من كل نقص..

انتقاء ألفاظ ممتلئة معبرة تلفت النفس إلى ما فيها من دلالات، وتستوقفها للتأمل الواعي إلى ما تقود إليه تلك الدلالات من ترسيخ الإيمان بربوبية الرب وألوهية الإله الواحد ﷻ، ومن تلك الألفاظ: «إله . رب . عبد . خلقتَ . صنعتُ . عهد . وعد . نعمة . أبوء...»

اتفاق «سيد الاستغفار» كع مطلع الذكر الحكيم: حيث يوجز كل منهما قضية الربوبية ويخلّصها (لله) تعالى، كما يحسم قضية الألوهية ويوجبها (لله) سبحانه، ويرتب على ذلك قصر قضية العبودية (الحمد)- بكافة مظاهرها- على الله الواحد الحق الذي لا شريك له ولا كُفُوًا..

ولعل ذلك مما أهَّل أم الكتاب لوجوب تكرارها في بداية كلّ صلاة، كما أهل تلك الصيغة النبوية للوصف بـ «سيد الاستغفار»، ووعد من يقوله صباحا موقنا به فيموت من يومه بالجنة، ومن يقوله حين يمسي موقنا به فيموت من ليلته بدخول الجنة..

ثانيا: الجانب العقدِيّ الإيماني: وهنا أكتفي بما عدّد الإمام ابنُ حجر من نفائس «سيد الاستغفار» في سفره النفيس «فتح الباري» إذ يعلَّل لتسمية هذا الذكر الشريف بـ «سيّد الاستغفار» فقال: «فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ بَدِيعِ الْمَعَانِي وَحُسْنِ الْأَلْفَاظِ مَا يَحِقُّ لَهُ أَنَّهُ يُسَمَّى سَيِّدَ الِاسْتِغْفَارِ؛ فَفِيه:

- الْإِقْرَارُ لِلَّهِ وَحْدَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَالْعُبُودِيَّةِ.
- وَالِاعْتِرَافُ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ.
- وَالْإِقْرَارُ بِالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِ.
- وَالرَّجَاءُ بِمَا وَعَدَهُ بِهِ.
- وَالِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا جَنَى الْعَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ.
- وَإِضَافَةُ النَّعْمَاءِ إِلَى مُوجِدِهَا، وَإِضَافَةُ الذَّنْبِ إِلَى نَفْسِهِ.

-وَرَغْبَتُهُ فِي الْمَغْفِرَةِ.

-وَاعْتِرَافُهُ بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا هُوَ»[1].

فاللهُمَّ ارزقنا بركة «سيد الاستغفار» في ديننا ودنيانا وأخرانا يا أكرم من سئل وخير من أعطى.. اللهُمَّ آمين

(١) فتح الباري بشرح صحيحي البخاري لابن حجر العسقلاني ١١/١٠٠.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار. لأبي بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (ت:٣٨٠هـ)، ت. محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، ط.١ دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

- تفسير الشعراويّ- الخواطر. لمحمد متولي الشعراوي (ت:١٤١٨هـ)، ط. مطابع أخبار اليوم، د. ت.

- التيسير بشرح الجامع الصغير لزين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)، ط.٣ مكتبة الإمام الشافعي- الرياض ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري). لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي، ت. محمد زهير بن ناصر الناصر، ط.١ دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ١٤٢٢هـ.

- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لمحمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (ت: ١٠٥٧هـ)، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، ط.٤ دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

- سبل السلام، لمحمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبي إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (ت: ١١٨٢هـ)، ط. دار الحديث، د. ت.

– سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة. لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت:١٤٢٠هـ)، ط.١ دار المعارف، الرياض– المملكة العربية السعودية١٤١٢هـ– ١٩٩٢م.

– شرح صحيح البخاري لابن بطال، لابن بطال أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت: ٤٤٩هـ)، ت. أبي تميم ياسر بن إبراهيم، ط.٢ مكتبة الرشد– السعودية، الرياض ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣م.

– شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى» لحمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي الوَلَّوِي، ط.١ دار المعراج الدولية للنشر– ودار آل بروم للنشر والتوزيع١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

– عمدة القاري شرح صحيح البخاري لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفى بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ)، ط. دار إحياء التراث العربي– بيروت، د. ت.

– غريب الحديث لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) ت. الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي ط.١ دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م.

– فتح الباري شرح صحيح البخاري. لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ط. دار المعرفة– بيروت، ١٣٧٩هـ.

– الفوائد العجيبة في إعراب الكلمات الغريبة. لابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (ت: ١٢٥٢هـ)، ت. د. حاتم صالح الضامن، ط.١ دار الرائد العرب– بيروت ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

- فيض القدير شرح الجامع الصغير، لزين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)، ط.١ المكتبة التجارية الكبرى- مصر ١٣٥٦هـ.

- الكلمة «المفتاح» في الحديث الشريف من الإعجاز البياني والروحي في الحديث الشريف للعميد الركن المتقاعد الدكتور محمد فرشوخ. يراجع «منتدى الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في لبنان» على الإنترنت.

- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، لمحمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني (ت:٧٨٦هـ)، ط.١ دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م.

- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على، أبي الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى:٧١١هـ)، ط.٣ دار صادر- بيروت ١٤١٤هـ.

- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ)، ت. مصطفى عبد القادر عطا، ط.١ دار الكتب العلمية- بيروت١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)، لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ)، ت. محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي- بيروت، د. ت.

- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. لعلي بن (سلطان) محمد، أبي الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت:١٠١٤هـ)، ط.١ دار الفكر، بيروت- لبنان ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

- معجم الفروق اللغوية. لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو٣٩٥هـ)، ت. الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، ط.١ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم» ١٤١٢هـ.

- النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) ت. طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي ط. المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.